



كثيرة هي الأماكن، مناطق وبلدات وأحياء مدنية، التي تختبر على البال عند استذكار بدايات الثورة السورية ثم مراحل تحولها القسري إلى كفاح مسلح قبل انتهائها إلى حرب طاحنة. ومن بينها، يحتل حي جوبر الممتد من شرق العاصمة السورية إلى شمالها الشرقي مكانة خاصة لأسباب كثيرة.

من هذه الأسباب أنه كان معقلاً للحركة السلمي، وأنه شهد في 22 أبريل 2011 مظاهرات ضخمة تدفق الناس إليها من بلدات الغوطة ومن أحياء دمشقية عدة بهدف التقدم نحو ساحة العباسين التي لا تبعد عن أطراف جوبر أكثر من 500 متر للاعتصام فيها. وعند وصول المظاهرة إلى محلّة الزيلطاني، فتحت قوات النظام النيران عليها فقتلّت وجرحت العشرات واعتقلت المئات ونكلت بهم.

وما زالت صور الشبان وهم يكشفون عن صدورهم ليؤكدوا سلميتهم ثم يتلقّون الرصاص ويُقتلون من أكثر الصور تعبيراً عن تلك المرحلة.

ومن الأسباب أيضاً أن شباب جوبر حررها حيّهم أواخر العام 2012 وتحولوا من يومها إلى خط المواجهة الأكثر تقدماً مع النظام على تخوم العاصمة دمشق. وهم لذلك تعرضوا لأعلى كثافة قصف على رقعة جغرافية واحدة، بالطيران والصواريخ والمدفعية والدبابات.

كما إنهم اختبروا ثاني استخدام مثبت لسلاح النظام الكيماوي (في مارس وأبريل 2013) بعد حمص بأربعة أشهر وقبل زملكا وعربين وأطراف المعضمية بأربعة أشهر أيضاً.

ومن الأسباب كذلك أنه منذ أواخر العام 2013 وحتى اليوم، يتعرّض حي جوبر للهجوم تلو الآخر من قبل جيش الأسد ومقاتلي حزب الله والميليشيات العراقية. ورغم ذلك، ترى مقاتليه تحت الأرض وفوقها ثابتين في مواقعهم لم يتراجعوا ولم يستسلموا.

وَحِينَ ادْعَى الأَسْد لِلَّة رَأْسَ السَّنَة الْمَاضِيَّة زِيَارَةَ الْحَيِّ وَتَفَقَّدَ قَوَاتِهِ فِيهِ بَعْدَ ادْعَائِهَا التَّوْغُّلَ دَاخِلَهُ، أَظْهَرَتِ الصُّورُ فِي الْيَوْمِ التَّالِي أَنَّهُ لَمْ يَتَخَطَّ حَدُودَ الْزِّيْلَطَانِيَّ بِاتِّجَاهِ جَوْبَرِ، وَأَنَّ مَنْ صَافَحَهُ بِحَرَارَةِ عَلَى أَسَاسِ أَنَّهُ مِنْ ضَبَّاطِهِ الْمَرَابِطِينَ عَلَى الْجَبَهَةِ كَانَ الْمَسْؤُلُ فِي حَزْبِ اللَّهِ مُحَمَّدُ أَحْمَدُ عَيْسَى.

هَكُذا، تَخْتَصِرْ سِيرَةُ هَذَا الْحَيِّ جَانِبًاً مِنْ سِيرَةِ الثُّورَةِ السُّورِيَّةِ الْمَنْسِيَّةِ. كَمَا إِنَّهَا تَخْتَصِرْ جَانِبًاً مِنْ صِيرَورَتِهَا التَّرَاجِيَّةِ. وَلَعِلَّ مَا كَتَبَهُ الصَّحَافِيُّ وَالْمُصَوِّرُ السُّورِيُّ سَعِيدُ الْبَطْلِ فِي مَقَالَهُ الْلَّامِعِ "مَغْمُضُ الْعَيْنَيْنِ بِلَا قَلْقٍ" فِي مَوْقِعِ مَؤْسِسَةِ "بَدَائِيَّاتِ" بَعْدَ زِيَارَتِهِ لِلْحَيِّ وَقَضَائِهِ يَوْمًا فِيهِ فِي أَكْتُوبَرِ مِنِ الْعَامِ الْمَاضِي يَعْبُرُ أَصْدِقَ وَأَعْقَمَ تَعْبِيرًا عَنِ الْحَيَاةِ الْمَنْسِيَّةِ فِي تِلْكَ الرُّقْعَةِ الصَّغِيرَةِ الْقَابِعَةِ خَلْفَ أَسْوَارِ النَّارِ وَفِضْيَّةِ الْبَشَرِيَّةِ.

يَقُولُ الْبَطْلُ: "أَثْنَاءَ تَصْفِحِي لِلنَّتِّ، وَجَدْتُ صُورَةً لِذَلِكَ الْيَوْمِ مَأْخُوذَةً مِنْ مَدِينَةِ دَمْشَقِ لِلْحَيِّ جَوْبَرِ تَحْتَ الْقَصْفِ... ارْتَجَفْتُ. لَمْ ارْتَجَفْ لِأَنِّي كُنْتُ الْخَارِجُ مِنْ تَحْتِ الدَّمَارِ وَمِنْ كَادِرِ هَذِهِ الصُّورَةِ. رَبِّمَا ارْتَجَفْتُ لِأَنِّي تَذَكَّرْتُ أَنَّ هَنَالِكَ أَحَدًا مَا فِي الْجَهَةِ الْمَقَابِلَةِ! كُنْتُ قَدْ نَسِيَتْ ذَلِكَ. أَحَدُّ يَرَى وَيَسْمَعُ وَيَفْكَرُ وَيَحْلِمُ وَيَصْوَرُ الْقَذَافَ الْمَنْهَمَرَ عَلَيْنَا. أَحَدُّ لَهُ مَا لَهُ وَعَلَيْهِ مَا عَلَيْهِ. هُوَ انْعَكَاسِيُّ، احْتِمَالِيُّ الْآخِرِ فِي الْوُجُودِ، وَقَدْ أَنْسَانِي إِيَّاهُ انْغَمَاسِيُّ، فَبَيْتَ أَظَنَّ أَنَّنَا وَحْدَنَا فِي هَذَا الْعَالَمِ، وَأَنَّ الشَّيْءَ الْوَحِيدِ الْقَابِعِ فِي الْضَّفَةِ الْأُخْرَى هُوَ الْمَوْتُ، بِقَذِيفَةٍ أَوْ قَنْبَلَةٍ أَوْ رَصَاصَةٍ... تُرِى هُلْ تَتَرَكُ صُورِيُّ، أَنَا الْقَابِعُ فِي الْجَهَةِ الْمَقَابِلَةِ، شَعُورًا كَهَذَا حِينَ يَتَلَفَّهَا سَكَانُ بَيْوَتِكُمْ، رَغْمَ انْغَمَاسِكُمْ فِي هَمُومِكُمْ وَضَوْضَائِكُمْ؟ تُرِى هُلْ أَنْسَاكُمْ ذَلِكَ وَجُودُنَا أَيْضًا؟".

لِلْحَيِّ جَوْبَرِ وَأَهْلِهِ، أَوْ مَنْ تَبَقَّى مِنْهُمْ، السَّلَامُ.

الْعَصْرُ

الْمَصَادِرُ: